محاولة لتحديد مفهوم المثقف

فضيلة سيساوى *

يعتبر مفهوم المثقف من بين المفاهيم المتداولة في حقل علم الاجتماع العصية على الضبط لجملة من العوامل التي يمكن اختصارها في نقطتين أساسيتين: طبيعة النشأة التاريخية للمفهوم وما تولد عنها من إشكالات نظرية كان لها الأثر البالغ على مسألة تناول هذا المفهوم، ثم ارتباطه فى اللغة العربية بمفهوم الثقافة الذى لا يقل عنه تشابكًا وتعقيدًا. هذا الإشكال النظرى هو ما ستتمحور حوله مجموعة الأفكار والموضوعات بهذا المقال فى محاولة لاستنطاق وتتبع وتحديد هذا المفهوم.

مقدمـة

تدعو التطورات التى تشهدها الساحة العالمية والعربية تحديدًا، إلى الاشتغال مرة أخرى ببحث دور ومكانة المثقف فى المجتمع، خصوصًا وهو الذى يفترض فيه أن يكون الحاضر اليقظ، الذى لا تغفو عينه ولا يغيب عقله عن التقاط نبض الشارع، وحياة وهموم هذا المجتمع، أو عندما نقف على كم الكتابات التى تتهمه إما بالغياب وإما بالتغيب عن الوضع الراهن، لاسيما فى المجتمعات العربية الإسلامية على وجه التحديد. وسواء كان ذلك طوعًا أو كراهية الكل مصاب بالدهشة، بل يطلق النار عليه، ويتهمه بقصر اهتمامه على شئون حياته اليومية، بتلميع صورته وبتسيير مساره المهنى.

فمن هو هذا المثقف؟ هل هو المتعلم حامل الشهادة العلمية، أم منتج المعرفة العلمية الأكاديمية؟ هل هو الفيلسوف؟ أم الكاتب ؟أم الأديب؟. تساؤلات وغيرها يمكن أن تطرح عندما نهم باستنطاق موضوع نحاول فيه تحديد مفهوم المثقف. إذ يجد المرء نفسه إزاء وضع شائك ومعقد للغاية، ذلك أن هذا المفهوم، واحد من بين

* أستاذة محاضرة "ب"، قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة جيجل الجزائر.

المفاهيم التى تمثل إشكالاً نظريًا للباحثين على اختلاف اتجاهاتهم الفكرية، ومنطلقاتهم النظرية، حيث يسعى كل واحد منهم إلى تعريفه وفق مبادئه وقناعته، أو بما يتماشى وميوله السياسية والأيديولوجية، الأمر الذى ينعكس مباشرة فى عملية تحديد مفهوم المثقف، دوره فى المجتمع، وعلاقاته بالسلطة، ويجد بصماته في تلك النعوت الكثيرة التى أُلصقت أو التصقت بهذا المفهوم.

وعليه سنحاول جهدنا من خلال هذا المقال طرق الموضوعات التى نرى من شأنها أن تفيد فى بناء محاولتنا لتحديد مفهوم المثقف، بغض النظر عن طبيعة المجتمع الذى يمكن أن ينتمى إليه هذا المثقف أو يتواجد فيه.

لأجل ذلك الغرض سنتناول تباعا النقاط التالية بالبحث والتحليل:

- مفهوم الثقافة.
- مفهوم المثقف.
- مبدأ استقلالية المثقف.
- أصناف المثقف.
- صفات المثقف.

مفهوم الثقافة

يفرض منطق الأشياء، كما الضرورة العلمية، ابتداء عملية تحديد المفهوم العودة إلى المفاهيم الأخرى ذات العلاقة، لصلتها الوثيقة بتتبع نشأة وتطور المفهوم، وبما أننا بصدد مفهوم "المثقف" فإننا نرى بأنه لا مناص وخاصة فى اللغة العربية، من المرور أولاً بمفهوم الثقافة الذى يعتبر المفهوم المفتاح فى التعامل مع مفهوم المثقف.

يبدأ الباحثون عادة محاولاتهم فى تحديد مفهوم" المثقف" بتحديد مفهوم الثقافة أولاً، على اعتبار أن كلمة مثقف فى اللغة العربية مستمدة أو مشتقة منها. أما حينما يعرفون الثقافة فنجدهم يجمعون على أن كلمة ثقافة تعبير مجازى، وهى مستمدة من الكلمة" culture"، التى تعنى حرث الأرض أو التربة، و أما في اللغة العربية فإن

كلمة ثقافة مشتقة من الفعل الثلاثي ثقف و ثقف الشيء معناه تعلمه بسرعة فائقة. أما الثقاف فهو ما تسوى به الرماح، ومن ثم فتثقيف الرماح يعنى صقلها. وإذن فللثقافة معنيان: المعنى اللغوى، والمعنى الاصطلاحى.

فالمعنى اللغوى: وكما تمت الإشارة إليه: هو التسوية، والصقل، أى تسوية الشيء وصقله. ويقال ثقف الرجل بمعنى أن الرجل صار حاذقًا أو ماهرًا. أما فى اللغة الأجنبية فإن كلمة ثقافة تقابلها كلمة" culture" التى تعنى الزرع، والزراعة تعنى الاستقرار، وبالتالى التحضر أو نشأة المدن.

أما فى **المعنى الاصطلاحى:** فالمعنى أيضًا متعدد. إذ تعددت التعريفات التى اهتمت بتعريف هذا المصطلح. وللتدليل على هذا الاهتمام وهذا التنوع يمكن أن نذكر فى هذا المقام بأن "إدوارد تايلور" قد أحصى ما يزيد على مائتى تعريف للثقافة. فمصطلح ثقافة، يعد مصطلحًا محوريًا، إذ أنه أحد المصطلحات الأساسية فى الحقل الاجتماعى، باعتباره يحاول أن يقدم توصيفًا إذا ما صّح التعبير للسلوك الإنسانى فى الحياة المجتمعية. ومن ذلك يمكن القول بإن تنوع التعريفات حول الثقافة لم يأت من العدم، وإنما أملاه تنوع واختلاف المجتمعات وارتباط الثقافة بهذه المجتمعات. إلا أننا عندما ننظر إلى الثقافة بصفة عامة أو بصورة مجردّة سنجد هناك الكثير من القواسم المشتركة، والتشابه بين ثقافات المجتمعات. فالاختلافات توجد فى التفاصيل، أو فى القضايا الخاصة بكل مجتمع على حدة. ولن يجانبنا الصواب إذا ما جزمنا بأن الثقافة هى أحد أهم العناصر التى تجعلنا نتعرف على الإنسان، وعلى المجتمع. فهى التى تميزّ الجنس البشرى وتؤكد على صفة الإنسانية فيه. ولهذا لم تكن محاولات العلماء المهتمين بدراسة الثقافات سهلة أبدًا، فقد تعددت وكثرت، الأمر الذى يجعل المرء سواء كان دارسًا أم قارئًا أمام إشكالية تتعلق بصعوبة تبنى تعريف بعينه دون التعاريف الأخرى.

هذا ولعل من أشهر التعريفات وأقدمها أيضا، ذلك التعريف الذى قدمه "إدوارد تايلور" فى أواخر القرن التاسع عشر فى مؤلفه "الثقافة البدائية"، إذ عرّف الثقافة بأنها "ذلك الكل المركب الذى يشتمل على المعرفة والمعتقدات، والفنون والأخلاق، والعرف، وما يكتسبه الإنسان من عادات وإمكانيات باعتباره عضوًا فى المجتمع."[١] أى أنه يعيش ضمن الجماعة الاجتماعية.

يتضح من التعريف السابق أن الثقافة تتألف من مجموعة من العناصر المندمجة التى تشكل الحياة الاجتماعية للأفراد والمجتمعات، وهى بطبيعة الحال، كما يبينها التعريف، مجموعة من العناصر المادية، وغير المادية وهى تنشأ، أو تتشكل نتيجة تفاعل الأفراد فيما بينهم فى أثناء ممارستهم لشئون حياتهم اليومية.

كذلك يقدم "روبرت ببرستد" بدوره فى أوائل الستينيات من القرن الماضى تعريفًا للثقافة ليقول إن "الثقافة هى ذلك الكل المركب الذى يتألف من كل ما نفكر فيه، أو نقوم بعمله، أو نتملكه كأعضاء فى مجتمع"[٢]. وهنا أيضا تتجلى مرة أخرى طبيعة الثقافة، المتمثلة فى ارتباطها بالمجتمع الإنسانى أو البشرى، وهى مثل ما ترتبط بأسلوب التفكير عند الإنسان، ترتبط أيضا بنمط سلوكه وتصرفاته، ونوعية ما يمتلكه.

والملاحظ على التعريفين السابقين هو أنهما لم يحصرا الثقافة فى الجانب المادى، أو اللامادى أو الفكرى فقط، وإنما جمعا بين الجانبين، على عكس ما فعلت بعض التعريفات التى سلكت منحى آخر، عندما ركزت على جوانب معينة في الثقافة دون أخرى، لنجد أن الثقافة عندها تتكون: إما من القيم والمعتقدات والمعايير والرموز والإيديولوجيات وغيرها من المنتجات العقلية، وإما ترتبط بنمط الحياة الكلى، مع ما يربط بين الأفراد من علاقات وتوجهات فى الحياة.

والحق أننا لا نود الدخول فى سجال فى هذا المجال، وإن كنا نقر بأن مفهوم "الثقافة" يعتبر واحدًا من بين المفاهيم الأكثر تداولاً، والأكثر غموضًا خصوصًا إذا أضفنا إلى ذلك كونه مفهومًا واكب التطورات التى خبرتها الإنسانية عمومًا والرأسمالية على وجه الخصوص. و يمكن فى هذا الباب الاستشهاد بـ"برتراند بادى" عندما يقول

فى كتابه : "الدولة المستوردة" " L'état importé " أن من انتصر هى هوليود، وليس النظام الرأسمالى، موسعا بذلك مفهومه للإعلام ليقترب من الثقافة كمفهوم أعمّ وأشمل.

لذا وأمام مثل هذا الواقع، أو كما يقول "الطاهر لبيب" لا تستغرب إذن، أن يكون من بين الأعمال الأكاديمية بحوث تنحصر في تتبع المحاولات التاريخية لتحديد معنى كلمة ثقافة، لتبين كيف أصبحت هذه الكلمة ضحية النجاح الذى حظيت به. ثم يكتب "إدجار موران" "E. Morin" كلمة الثقافة تبدو وكأنها كلمة ثابتة حازمة، الواقع أن مفهوم الثقافة ليس أقل غموضًا وتشككًا وتعددًا فى علوم الإنسان منه فى التعبير اليومى".[٣] أو لنقل معه أنها كلمة مضللة تستخدم فى تبرير مواقف معينة، وإيديولوجيات الهيمنة تحت مسميات عديدة قد تكون حرية الفرد، الديمقراطية، التبادل الحر، أو الانتشار الثقافى الذى يدعو- فى ظل نظام العولمة- إلى ضرورة أن تحاكى الثقافات غير المتطورة الثقافات المتطورة، أو الأكثر تطورًا، وهى بطبيعة الحال ثقافات الرأسمالية التى أخذت فى التطور خاصة بعد التسعينيات بشكل أكثر شراسة، حيث بدأ التراجع عن الضمانات الاجتماعية والمفاهيم التى أخذت بها الرأسمالية فى ظل دولة الرفاه. وقد جاء هذا التراجع مرتكزًا على مفهوم اقتصادى: وهو أن العاطلين، والمحالين على المعاش، والعاجزين هم عبء على المجتمع، هذه الطروحات تصب فى فكرة "فوكوياما" نفسها وهى: "نهاية التاريخ لصالح المنظومة الرأسمالية"[٤] مثله فى ذلك مثل البعد الاجتماعى، عندما ترفض المنظومة الرأسمالية النظر بعين "الرحمة" إلى الفئات الاجتماعية البسيطة، والهامشية غير القادرة على تحمل عبء العيش فى المجتمع الرأسمالى والأمريكى تحديدًا.

إن ما نعنيه هنا أن الثقافة ليست حقلاً حياديًا نتصرف فيه وفق إراداتنا الحرة بعيدًا عن المؤثرات أو المنبهات الخارجية والداخلية على حد سواء. بل قل إن المثقف هو الحامل لهذه المنبهات وهذه المؤشرات التى يتحرك ضمنها الإنسان، أو فى إطارها وتحت وقعها وتأثيرها لأن بمقدورها أن تعمل عمل السحر على الأفراد فى

مجالات وعلى مستويات عدّة، بدءًا بطريقة الأكل والملبس، وصولاً إلى نمط التفكير وإنتاج الأفكار. ولذلك فلا غرابة مثلا فى أن يهتم "بيير بورديو" بالعلاقة بين الثقافة والخياطة الرفيعة، حيث يشرح فى مطلع حديثه عن هذا الموضوع أن الأمر ليس دعاية، بل قد يتساءل الكثيرون وما العلاقة بينهما؟ ويجيب بأن من جملة المبررات فى ذلك أنه يود تقديم إسهام خاص بسوسيولوجيا المنتجات الفكرية، أو سوسيولوجيا عن المثقفين[٥] أى سوسيولوجيا يكون موضوعها المثقف فى علاقته بالقضايا الاجتماعية وبثقافة المجتمع.

وفى عبارة أوضح ضرورة التذكير، ما دمنا بصدد الثقافة والمثقف، بغياب التجانس الثقافى حتى داخل المجتمع الواحد. أى أنه لا توجد فى الواقع ثقافة للجميع، وإنما توجد أنماط ثقافية مختلفة قد تتناقض مضمونًا ووظيفة داخل المجتمع الواحد، على الرغم من وجود بعض الخصائص المشتركة منها:

١- أن الثقافة كمجموعة من المعطيات الفكرية والعاطفية والمادية تحافظ على كلية تترابط فيها المعطيات ترابطًا يكسبها دلالتها ولا تفسر خارجه.

٢- التشكيل: والذى تختلف قوته ومرونته بحسب الحالات، والذى يستحيل دون حدّ أدنى من التمكّن من الظاهرة الثقافية.

٣- التعلم: ويقصد به أن ما هو ثقافى لا يورث، بل يكتسب عن طريق التنشئة الاجتماعية. لذلك فالثقافة ليست أمرًا بيولوجيًا أو طبيعيًا.

٤- المشاركة: أى أن الميزة الأساسية للظواهر الثقافية هى اشتراك جماعة من الناس فى الموقف منها، والعبرة هنا ليست بالعدد، أى عدد الجماعة [٦] وإنما فعل المشاركة فى الحياة الاجتماعية.

إن ما يمكن التأكيد عليه بخصوص مصطلح "الثقافة" هو هذا الكم الهائل من التعريفات التى أعطيت له والتى صنفت إلى عدة تصنيفات متباينة ومختلفة، بسبب اختلاف المناهج، والرؤى الفكرية. وبالفعل يمكن الجزم اليوم بأنه لا يوجد مصطلح آخر عدا مصطلح "مجتمع" يكون قد لقى مثل هذا الاهتمام، وهذا الرواج. زيادة على

ذلك نجد أن مصطلح "ثقافة" يقابله عادة مصطلح آخر هو مصطلح "حضارة" الذى يتداخل معه. وهو المصطلح الذى ظهر فى اللغة الفرنسية حوالى سنة ١٧٦٦ أى فى نفس الفترة تقريبا التى ظهر فيها مصطلح ثقافة علما بأن مصطلح "حضارة" لا يشير دائما إلى نفس المعنى في اللغتين الفرنسية والألمانية، بل حتى فى اللغة العربية[٧] وبخاصة عندما يقصر اهتمامه على بعض مظاهر الحياة الاجتماعية.

مفهوم المثقف

حرصنا منذ البداية على التشديد بشأن أن عملية تحديد مفهوم "المثقف" ليست أمرًا يسيرًا، فهيى إجراء نظرى معقد لأنها تتصل بالأفكار، أي بالأيديولوجيات، المتصلة بدورها، ولو بصورة قد تكون غير مباشرة، بالمصالح المادية أو الموضوعية، أو الذاتية. ثم إن الحديث عن موضوع "المثقف" يأخذ أبعادًا، وتشعبات عدّة، منها على سبيل الذكر لا الحصر تلك المرتبطة بالتصنيفات، أو بالأنواع، كما بالبدايات، أو بالجذور التاريخية لظهور هذا المفهوم، أو فى اقترانه بحادثة "درايفوس" وفى ارتباطه بتحمل المسؤولية التاريخية من قبل "إميل زولا" عبر مقاله "إنى أتهم" –(J'accuse) – ومن ثم استحداثه فى اللغة العربية، الذى جاء كترجمة للمصطلح أو للكلمة الأجنبية (Intellectuel).

لذلك فإن أية محاولة لتحديد مفهوم "المثقف"، ستعترضها مشكلة أساسية تتمحور حول مدى الاستقلالية التى يمكن أن يتمتع بها المثقف، وطبيعة الدور الذى يلعبه داخل المجتمع. وبتعبير آخر لا تنحصر المشكلة فى إعطاء تعريف بسيط أو مبسط لمفهوم "المثقف" مثلما تفعل مثلا قواميس اللغة كـ "روبار الصغير" مثلا الذى يعرف "المثقف" "بأنه ذلك الذى كرّس حياته للفكر"، أو قاموس "لا روس" الذى يعرفه بأنه "ذلك الذى ينتمى إلى الفكر إلى النشاط الذهنى أو إلى العمل الفكرى. أو هو كل شخص تقوم وظيفته على النشاط الذهنى و له تذوق مؤكد للنشاطات الذهنية ".[٨] ولربما كانت هذه هى الميزة التى تجعلنا نطمئن إلى أن المثقف وإن خفت صوته، أو

غاب عن ساحة النقاش كمشتغل بالفكر، أو كصاحب سلطة رمزية، لم ينته بعد، حتى وإن اختلفت صورته وتلون صوته. فمن المثقف الملتزم، إلى المثقف المسئول، إلى المثقف الناقد، إلى المثقف النوعى إلى غير هذا من النعوت، التى يندر أن تذكر كلمة مثقف بمعزل عنها، وهذا إن دل على شىء فإنه يدل على مدى انتشار تداول هذا المفهوم، وتطوره عبر مراحل تاريخية مختلفة، وإن كان من الصعوبة بمكان تحديد أصل هذه الكلمة، التى يرجعها البعض إلى اليونان القديمة، بينما يرجعها البعض الآخر إلى عنصر التنوير.

من ثم يمكن القول إن أى مفهوم، كى يفهم على وجه الدقة والتحديد، نحتاج فيه إلى مساءلة التاريخ أو العودة إلى الظروف التاريخية التى أدت إلى ظهوره. عموما وأيًا كان الأمر، فإن أى محاولة لتعريف مفهوم "المثقف" لا يمكنها تجاوز مساهمة "أنطونيو غرامشى" المتميزة فى هذا المجال. والذى يعرفه بطريقتين إن صح القول، حيث تتمثل الأولى فى تحديده– مفهوم" المثقف"– من خلال المكانة، والوظيفة التى يؤديها ضمن البنية الاجتماعية، وهنا يتعلق الأمر بالمثقف العضوى. وأما الثانية: فتقوم على تحديده لمفهوم "المثقف" بالرجوع إلى المكانة، والوظيفة التى يقوم بها المثقف ضمن السياق التاريخى، ويتعلق الأمر فى هذه الحالة بالمثقف التقليدى. علما بأن "غرامشى" كان يقصد بالمثقف التقليدى ذلك المثقف الذى ارتبط عضويًا بطبقات اجتماعية ولّت، أوهى فى طريقها إلى الزوال، ولقد عمد "غرامشى" بفعل مثل هذا التمييز للضرورة المنهجية ليس إلاّ.

لقد رفض "غرامشى" أن يقام التميز بين "المثقف"، وغير المثقف على أساس التمييز الشائع أو المتداول الذى يتم على أساس التفرقة ما بين العمل اليدوى والعمل الفكرى. فالتميز عند غرامشى يبنى على أساس المكانة، والوظيفة التى يؤديها "المثقف" ضمن مجموع العلاقات الاجتماعية. وبالتالى وحسب "غرامشى" فإن لكل طبقة اجتماعية مثقفيها العضويين، وهو ما لا يعنى بالضرورة أن يكون الأصل الاجتماعى للمثقف من نفس الطبقة الاجتماعية التى يرتبط بها عضويًا. "إن المثقف

هو المنظم على المستوى الاقتصادى، والاجتماعى والثقافى والسياسى لإدارة، وهيمنة هذه الطبقة أو تلك على مجموع المجتمع [٩] فكأنه العقل المدبر لهذه الطبقة فى تعاملها وتصرفها نحو المجتمع.

أما "سارتر" الفيلسوف الفرنسى والمثقف الملتزم، الذى كان يصر دوما على أن على الفيلسوف واجب المشاركة فى صنع التاريخ فيرى بأن المثقف هو: " كل شخص بلغ الشهرة بفضل أعماله فى مجال الفكر، ويستغل تلك الشهرة للتدخل فى أمور خارج مجال تخصصه، أو باختصار التدخل فيما لا يعنيه". إن موقف "سارتر" من المثقف لم يأت من العدم ولكنه نابع من تجربته الذاتية، تجربته للسجن أثناء الحرب العالمية الثانية، حيث كتب وأخرج لزملائه الذين كان قد استبد بهم اليأس، مسرحيته الأولى داخل السجن. لذلك نجد أن "سارتر" عندما يتكلم عن المثقف فإنه يقصد المثقف الملتزم، إن سياسيًا، أو فلسفيًا، وما تأسيسه لمجلة "الأزمنة الحديثة" إلا عملاً لا يمكن إدراجه إلاّ فى هذا الإطار. ولقد صرح فى هذا الإطار يقول "إننا نصطف إلى جانب الذين يريدون تغيير الظرف الاجتماعى للإنسان، والتصور الذى لدى الإنسان عن نفسه". ويضيف "إن علينا بالالتزام مثلما علينا أن نكون أحرارًا"[١٠]. إن ما يفهم من كلام "سارتر" هو أن على المرء وحتى يكون حرًا، أن يسعى إلى صون الحرّية بالممارسة الواعية لتلك للأفكار فى ارتباطها بالحركة الجماهيرية عمومًا.

وفى نفس الاتجاه يذهب كل من "باسكال أورى" "Pascal Ory" و"جون فرانسوا سيرينال" "Jean François Sirinell" فى مؤلفهما" المثقفون فى فرنسا من قضية دريفوس إلى يومنا هذا" فى تعريفهما للمثقف عندما يؤكدان بدورهما على أنه لا وجود للمثقف إلاّ عند نقطة التقاء الفكر بالسياسة، فما نلمسه في هذا التعريف هو رفضهما للتعريف الواسع للمثقف. فبحسب هذين المؤلفين "المثقف" ليس الشخص الذى يفكر فقط، وإنما ذلك الشخص الذى يعمل على إيصال ما يفكر فيه إلى الآخرين، أى عبر التأثير على الأفراد، سواء عن طريق العرائض (Pétition)، أو المنصات، أو بالكتابة، وغيرها من الممارسات الأخرى. فالمثقف بالنسبة لهما" رجل ثقافة، مبدع، أو

وسيط، يوجد فى وضعية رجل السياسة، وهو منتج، أو مستهلك للأيديولوجيا. كما أنه ليس فئة اجتماعية مهنية بسيطة، ولا إنسانًا عاديًا، فهو إنسان يتعذر تبسيطه، ذلك أن الأمر يتعلق بمكانة متفوقة نتيجة إرادة فردية، لكن موجهة نحو الاستخدام الجماعى" (١١) أو قل أن المثقف فى كل هذا إنسان مركب.

إن مثل هذا التعريف للمثقف، ليحيلنا مباشرة إلى لحظات تاريخية كان لها الأثر على توجيه الفهم بشان فكرة "المثقف" ألا وهى اللحظة الأولى عندما كتب "إميل زولا" فى جريدة "لورور" "l'Aurore" بتاريخ ١٣ يناير ١٨٩٨، منددًا بمواقف بعض الشخصيات ومدافعا عن "دريفوس" الذى اتهم زورا بالعمالة، والتجسس لصالح ألمانيا، وحكم عليه بالنفى إلى غويانا. وأما اللحظة الثانية، فكانت عندما ردّ "كليمونصو" "Clemenceau" بتاريخ ٢٣ يناير من نفس السنة، إذ كتب يقول: "أليست هذه إشارة كل هؤلاء المثقفين الذين جاءوا من كل الاتجاهات واجتمعوا للدفاع عن فكرة؟ ".(١٢) وفى عبارة مختصرة قد ارتبط المثقف بمواقف تاريخية حاسمة.

لقد أعطى" إميل زولا" بموقفه ذك معنًا محددًا للمثقف. وهو أن المثقف وإن كان رجل فكر، أو ثقافة فهو أيضا رجل مناضل، مهتم بالشأن العام، وبالشأن السياسى، وبالدفاع عن الحق، والحرية. وهو ذات المعنى أو القصد الذى ذهب إليه "على حرب" فى كتابه" أوهام النخبة أو نقد المثقف" عندما عرف المثقف بقوله"... ولكن أيا ما كان نموذج المثقف وحقل اختصاصه أو مجال عمله، فهو من يهتم بتوجيه الرأى العام، أو من ينخرط فى السجال العمومى، دفاعًا عن قول الحقيقة، أو حرية المدينة أو مصلحة الأمة أو مستقبل البشرية... والمثقف بصفته يستخدم سلطة الكلام أو الكتابة، ويعمل فى حقل الإنتاج الرمزى ... إنما يتصرف كصاحب حظوة وامتياز" (١٣) أو ما معناه أن المثقف فاعل اجتماعى بالأساس.

إن المثقف بحسب "على حرب"، وإن كان يشغله هم العامة، ويهتم بالقضايا الإنسانية، والحياتية الماضية، والحاضرة والمستقبلية، إلا أنه ليس من سواد الناس، لأنه يشتغل فى الحقل المعرفى، أو الثقافى، ولأن عليه تجاوز قوالب التفكير الجاهزة

على النحو الذى يسمح له بالابتكار، والتجديد، تعرية الواقع، نبش الممنوع، وسؤال المحرم والقداسات. إن المثقف"... بصفته يهتم بشئون الحقيقة، والحرية، والعدالة، وسواها من القيم العامة... يتعيش من الكلام على الانتهاك الذى تتعرض له الحقوق والحريات. هذا دأبه منذ تكون نمطه وتشكل مفهومه... [١٤] أو كأن "على حرب" أراد أن يقول: يفترض فى المثقف أن لا يقدر على السكوت.

وإذا كان مفهوم المثقف اليوم قد اتسع ليشمل جميع الذين يشتغلون بالثقافة، فيجب، وكما ذهب إليه "محمد عابد الجابرى"، من إعادة هذا المفهوم إلى معناه الأصلى، أو كما عبر عنه هو إلى معناه "القوى" الذى اكتسبه مع قضية "دريفوس". وبالتالى فإن المثقف لا يتحدد وضعه من علاقته بالفكر، والثقافة أو بكونه لا يكسب عيشه بالاعتماد على جهده العضلى لكن بالدور، وبالوظيفة التى يؤديها داخل المجتمع. أو كما عبر "بول باران" عندما يتعلق الأمر بالقضايا الاجتماعية، والتاريخية يجب البحث فى الحد الذى يفصل "العامل الفكرى" عن المثقف، بما أن "العامل الفكرى" هو خادم الطبقة المسيطرة التى تعمل على إبقاء الوضع على ما هو عليه، بينما يسعى المثقف بالقول وبالفعل إلى تغيير وتجاوز ذلك الواقع. والمثقف حسب "الجابرى" يجب أن تتوفر فيه جملة من الشروط على رأسها أن يكون شجاعًا، ومستعدًا للذهاب بالبحث العقلانى إلى أبعد الحدود، وأن يقوم بنقد صارم لكل ما هو موجود، فهو الناقد الاجتماعى، والناطق باسم قوى التقدم، الذى لا مناص له من أن ينعت بأنه شخص يثير العراقيل والفتن. [١٥] إن المثقف والحال هاته لا بد أن يتسم بالحرص على الدفاع عن حريته، حريته فى التفكير، وفى استخدام عقله، ولذلك فهو أحوج ما يكون إلى التمتع بالاستقلالية والإرادة الحرة.

لذلك نجد "الجابرى" حين يهتم بالمثقف فى الحضارة العربية الإسلامية، فى محاولة لتحديده، والتعريف به، يؤكد مرّة أخرى على جملة من الأوصاف. لربما من أهمها أنه من العامّة ومن الخاصة فى آن واحد، زيادة على أنه يعيش من العطاء، ويحتمى بالعقيدة لا بالقبيلة. وبما أنه صاحب فكر فإنه يحول تلك العقيدة إلى "رأى"

له يتميز ويعرف به. وهو فوق كل هذا من الحضر لا من البادية. ولا ينسى "الجابرى" فى عرضه لهذه الأوصاف جميعًا أن يربط ظهور هذا المثقف فى الحضارة العربية الإسلامية بظهور الخلاف.

وعليه "فالمثقف" فى الحضارة العربية الإسلامية حسب "عابد الجابرى" وإن كان ينتمى إلى الرعيّة، فإنه من الخاصّة لأنه صاحب معرفة، تمنحه امتيازًا، كما تمنحه سلطة وجاها. وهو وإن احتمى بالعقيدة، فإنه صاحب رأى ويدافع عنه، بل ويسعى إلى نشره، فى أوساط العامة، كما يجعل من الأطر الاجتماعية موضوعًا لكلامه.

هذا ما يقودنا إلى القول إن المثقف موجود ضمن سياق اجتماعى. ولذلك لا يمكنه إلا أن يؤثر ويتأثر به. إنه "... فاعل اجتماعى جمعى، وليس مجموعة أفراد يشتركون فى نشاط مهنى، أو علمى، أو ذهنى واحد يقرب ما بينهم. وعندما نتحدث عن فاعل اجتماعى فنحن نشير إلى قوة محركة ديناميكية اجتماعية، أى إلى مبدع فكرى"(١٦). ولذلك لا يمكن أن تتطابق صورة "المثقف" فى كل الحالات وفى جميع الأحوال لأنها تتأثر بطبيعة السياق التاريخى الذى يعيش فيه. ومن ثم فلا عجب أن تختلف السمة الخاصة بالمثقف العربى، عن تلك التى تميز المثقف الغربى الذى كان ظهوره داخل المجتمع الصناعى.

وعليه وإزاء تأثر "المثقف" بالسياق الاجتماعى، يكون من المفيد التساؤل حول مدى استقلالية المثقف عن أية روابط بأية طبقة، أو فئة، أو جهة، أو أية مصلحة كانت.

استقلالية المثقف

ونحن بصدد المثقف نتناول أيضا إشكالية مدى استقلالية المثقف حيال الأوضاع، والظروف المحيطة به. فإلى أى مدى يمكن الحديث عن المثقف الحر، أو المثقف المستقل؟ عندما نستشف من قراءتنا للتعريفات السابقة حول المثقف بأنها تكاد تتفق

على أن "المثقف" إنسان يجب أن يكون فوق مستوى الشبهات، بما أنه مشغول بهم العامة، وبما أنه العين الناقدة، حارس المعبد، أو الناقم على الفساد الاجتماعى.

لقد ابتدأنا تعريفاتنا لمفهوم المثقف بتعريف "غرامشى" ولم يكن ذلك محض صدفة بل قرارًا اتخذناه. لقد صاغ "غرامشى" هذا الإيطالى الذى عاش فى القرن الماضى، مفهوم "المثقف العضوى" وكان يقصد به بأن لهذا المثقف دورًا، أو وظيفة، ومسئولية تجاه الطبقة التى يعمل لصالحها من جهة، وعينها الناقدة من جهة أخرى. وبتعبير أدق "المثقف العضوى" ليس مجرد انعكاس مباشر لهذه الطبقة الاجتماعية أو تلك، أى أنه يتمتع بنوع أو بقدر من الاستقلالية عنها. هذه الاستقلالية النسبية دفعت بـ "بيار بورديو" فى رده على سؤال حول مدى تبعية المثقف للطبقات المهيمنة إلى الاعتراف بأنه ضد هذا الوهم السائد الذى يصور المثقفين على أنهم من دون ارتباطات أو من دون جذور، مذكرًا فى ذات الوقت بأن المثقفين وباعتبارهم أصحاب "رأسمال ثقافى" يشكلون الجزء المهيمن عليه ضمن الطبقة المهيمنة. ولذلك نجد أن الكثير من مواقفهم السياسية متأثرة بطبيعة وضعية الهيمنة خصوصًا وأنهم المهيمن (بفتح الميم) عليهم ضمن المهيمنين (بكسر الميم). ويضيف "بورودیو" إلى ذلك بأن الانتماء إلى الحقل الثقافى لا تستتبعه مصالح مادية فقط، ففى موسكو كما فى باريس على حد تعبيره تمنح المناصب الأكاديمية، أوعقود النشر، بالإضافة إلى رموز العرفان، العطايا، والمنح، التى لا يتفطن لها ولا ينتبه إليها أولئك الذين ليسوا من الوسط. [١٧] وكأن "بورديو" يسجل هنا اعترافه بانحياز "المثقف" إلى هذا الموقف، أو ذاك، أو إلى هذا الطرف على حساب الطرف الآخر.

ثم إن "بورديو" لا يكتفى بهذا التوضيح، بل يقترح ما أسماه سوسيولوجيا المثقفين التى يمكن أن تمنح لهم الإمكانية للحرية. فهؤلاء المثقفون الذين يعتقدون بأنهم يهيمنَون على عصرهم، هم فى الغالب مهيمَن عليهم من قبل عصرهم هذا، حتى أنهم غالبًا ما ينتهون بنهايته، فعلم الاجتماع يقدم للمثقفين الفرصة لقطع الجاذبية والتنديد بالعلاقة بين المالك والمملوك، التى تقيدهم. إن المثقفين إذ يعتقدون

بأنهم مواكبون للأحداث اليومية، هم فى الواقع على ذوق ذلك اليوم. [١٨] أو هم يعيشون على وقع العصر.

إن "بيار بورديو" وعبر موقفه هذا يعرى حقيقة المثقفين، الذين يعتقدون بأنهم وحدهم من يملك مفتاح الحقيقة فى الوقت الذى هم غير قادرين أصلا على التخلص من تأثير الواقع المعاش عليهم، بغية بناء تصور مستقبلى، أو صياغة رؤية استشرافية. فهم منشغلون بالبرهنة على أنهم مع العصر ويجارون الموضة، علما بأن سمة المثقف لا تكمن فى مجاراة الموضة – موضة الأفكار– بقدر ما تتجلى فى قدرته على اكتشاف ما يفرضه عليه تاريخ ومنطق الحقل الثقافى التفكير فيه فى ظرف معين مع ما قد يتوهمه من حرية[١٩] أى أن المثقف محاصر بما يفرضه عليه الواقع الاجتماعى من تحديات فى ظل الظروف والأوضاع الاجتماعية السائدة.

من ذلك، وما دمنا بصدد مدى استقلالية أو تبعية المثقف– وللأمانة العلمية– لابد أن نذكر بأن الآراء حول مدى هذه الاستقلالية، أو التبعية ليست موحّدة، ولا واحدة. ويمكن فى هذا الباب التذكير على سبيل المثال لا الحصر بموقف "موسكا" ثم من بعده ببضعة عشرات من السنين "كارل منهايم" وغيرهما ممن اعتقدوا فى إمكانية أن يشكل المثقفون جماعة مستقلة من دون أية ارتباطات اجتماعية.

ف "موسكا" مثلا ينظر إلى المثقفين باعتبارهم جماعة موجودة فى وضع وسط ما بين البرجوازية والبرولتياريا، وهى قادرة على أن تصبح نواة لنخبة جديدة. ويقول فى هذا الإطار "إذا كانت هناك طبقة اجتماعية مستعدة ولو للحظة لنسيان المصلحة الخاصة، من أجل المصلحة المشتركة ... فإنها من دون شك، تلك الطبقة التى سمح لها تكوينها الفكرى بامتلاك ما يمكن أن يعبر عن كرامة الأخلاق، سعة الأفق، وعن الطاقات المتفتحة ... هذه الطبقة هى الوحيدة القادرة على التضحية بمنفعة آنية من أجل تفادى الشر فى المستقبل".[٢٠] وكأن "موسكا" بهذا الرأى يشيد بقدرة المثقفين على التمتع باستقلالية تفيد فى التطلع الى المستقبل.

أما "كارل منهايم" فينظر إلى المثقفين على أنهم شريحة اجتماعية وهى تقريبًا من دون انتماء طبقى. شريحة متجانسة، يمكن أن تتمتع بمعرفة كاملة، وموضوعية نسبيًا عن المجتمع، وبشكل خاص عن مختلف جماعات المصالح التى تتعايش بداخلها – داخل الشريحة – كما يمكن أن تسهم بحرية فى ترقية المصالح الاجتماعية الأكثر عمومية.

الواقع، أن المثقفين وكما ذهب إليه "بوتومور" وإن كانوا يتمتعون بنوع من الاستقلالية مثلما يبدو أحيانًا إلا أنهم وعبر تجارب تاريخية عديدة قد استطاعوا أن يشكلوا نخبة جديدة ناضلت من أجل السلطة تحت شعارات مختلفة. ويمكن تلمس هذا من خلال الاطلاع على تاريخ المجتمعات الغربية كيف أن الحركة العمالية، التى، وعلى عكس الحركات الاجتماعية التى سبقتها، لم تكن حركة احتجاجية ظرفية، بل حركة حوت نظرية حول المجتمع كان للمثقفين دور بارز فى صياغتها.

هذا ويعبر "ريمون آرون" فى مؤلفه "أفيون المثقفين" عن نفس الموقف تقريبًا عندما لاحظ تلك الروابط الضيقة التى ربطت المثقفين الفرنسيين بالإدارة وبالحياة السياسية مقارنة مع نظرائهم فى إنجلترا، ألمانيا، والولايات المتحدة الأمريكية. ففى دراسة حول أعضاء غرفة النواب الفرنسية عن الفترة الممتدة ما بين ١٨٧١ و١٩٥٨ اتضح أن نصف الستة آلاف نائب منتخب عن هذه الفترة كانوا من المثقفين بالمعنى الواسع للكلمة– كتاب جامعيون، رجال قانون، صحفيون، مهندسون، مربون– ويقال فى فرنسا إن المثقفين هم الذين أسهموا بشكل أكبر فى إعطاء النقاش السياسى داخل غرفة النواب، فى الجمهورية الرابعة، كما الجمهورية الثالثة طابعًا حماسيًا. "... لقد كان بمقدورهم طرح المشكلات فى شكلها المجرد، وبطريقة متميزة. إلا أنهم بالمقابل كانوا ميالين إلى اقتراح الحلول الأقل واقعية، والاهتمام بالتدقيق فى الأمور على حساب المسائل الأساسية. فقد كانوا يعقدون ويطيلون النقاش دونما فائدة بابتداعهم للمشكلات والخصام فيما بينهم"[٢١]. بتعبير آخر يميل "ريمون آرون" إلى الاعتقاد فى

أن حماسة المثقفين لم تكن كافية لتشفع لهم قصورهم حالما تعلق الأمر بابتداع أو اقتراح وتقديم الحلول التقنية الدقيقة للمشكلات المطروحة.

والحال هذه فكأنما المثقفون عندما يتحولون عن القيام بدورهم الأساسى، دور الناقد الاجتماعى، إلى ممارسة السلطة تجدهم يتحولون عن الاهتمام بالمسائل الجوهرية المتعلقة بمستقبل الإنسان، إلى الاهتمام بالأمور الجزئية أو الثانوية. وهو الموقف الذى عبر عنه "نديم البيطار" بقوله: "عندما يقترن الفكر بالنظام القائم يتعرض– هذا إن لم نقل ينحسر– إلى فقدان هذه التصورات المستقبلية والأبعاد النظرية الجامعة والبعيدة المدى التى تترتب عليها وإلى الانشغال بمشكلات جزئية منفصلة ومحدودة يضيع فيها، ما كان سابقًا نظرة جامعة يتحلل إلى مشكلات حسية..." [٢٢] وعليه فالحرص على استقلالية الفكر مثلما هو الشأن بالنسبة للمثقف يصبح أمرًا جوهريًا حتى لا يحيد عن لعب دوره الأساسي فى المجتمع، وفى دق ناقوس الخطر كلما استدعت الضرورة ذلك، أو هكذا يفكر "نديم البيطار" .

إن ما يمكن قوله فى هذا الخصوص هو أنه وبغض النظر عما إذا كان المثقفون يشغلون وظائف خاصة أو عن وضعيتهم الاجتماعية، فإنه ليس لهم مفر من الاشتغال بالقضايا المصيرية للمجتمعات وللإنسانية قاطبة. ذلك أن لهم وظيفة اجتماعية خاصة، وهى كما وضحها "برهان غليون" تختلف عن وظيفتهم المتعلقة بالمعرفة مراجعتها والتدقيق فيها وفى سياق وشروط إنتاجها إنها "وظيفة إنتاج المجتمع نفسه من حيث هو آلية تختص بجمع وتوحيد الأجزاء والعناصر التى يتألف منها، وبث الروح الجمعية فيها وتحويلها بالتالى إلى كيان حى قادر على الحركة والتنظيم، والتنسيق، والتحسين، والإصلاح"[٢٣] بل قل ببث عزيمة الحياة فى المجتمع.

وبالفعل يقف المتتبع لمسار التاريخ على حقيقة الدور الذى لعبه المثقفون ضمن هذا المسار، وفى تحديد اتجاهه. مند عصر الأنوار، من "فولتير"، و"روسو"، "إميل زولا"، إلى "جون بول سارتر"، و"بور ديو". هؤلاء الذين شاركوا بفعالية فى صوغ الأحداث وفى التأثير فى ديناميكيتها. لقد كان هؤلاء فاعلين اجتماعيين داخل

مجتمعاتهم بصورة خاصة، وفى تاريخ الإنسانية بشكل عام، من خلال أعمالهم الفكرية ومواقفهم كونهم لم يكتفوا بتوضيح وشرح القضايا المجتمعية، بل عملوا على رسم الطريق التى يجب قطعها من أجل بناء مستقبل أرقى.

والحق أن سلطة المثقف، ترتبط بقوة الأفكار التى يعبر عنها، ويمارسها داخل المجتمع. ولقد استطاع أن يحارب التطرف واللاتسامح بقوة الفكرة القريبة من المثالية التى بهرت وتبهر الأفراد، تجندهم وتدفعهم نحو الفعل. "إن الأفكار فى الحقيقة وبعيدًا عن أن تكون مجردة بشكل كلى فإنها تتضمن مفهومًا معنويًا. ثم إن الأفكار التى تسعى لتأخذ شكلاً حساسًا وملموسًا، من خلال وبواسطة الفاعلين الإنسانيين، تؤدى إلى تحديد نمط معين للسلطة".(٢٤) وبالتالى فإن سلطة المثقف تكمن إلى حد معين، فى تحويل الأفكار التى يقولها إلى واقع ملموس ومعاش.

إن المثقفين إذ يؤثرون فى الأفراد فلأنهم يعبرون عن الطموحات، وعن المطالب الكامنة لهؤلاء الأفراد. ثم إنهم يستمدون سلطتهم أساسًا من مساهمتهم فى تحديد القيم الاجتماعية، ومن انخراطهم فى العمل السياسى، وإلا تحولوا إلى مجرد موظفين، أو حرفيين. لذلك يمكن إلا أن نصفهم بأنهم"... المعبر عن ضمير الأمة، العاملون عن طريق الفكر على تغيير واقع مجتمعاتهم وعلى رسم المشروعات الضرورية لبناء مستقبلها". (٢٥) وعليه فعلى المثقفين لزومًا العيش فى وسط الناس والنزول إلى معترك الحياة الاجتماعية بتفاصيلها اليومية، وتحمل مسئولياتهم التاريخية.

من ذلك يمكن أن نخلص إلى أن المثقف لا يقف على الحياد، ويشترط منه الموقف المسئول تجاه قضايا مجتمعه، بقيامه بوظيفته النقدية تجاه المجتمع بصفة عامة، وبالالتزام بالدفاع عن القيم الإنسانية المرتبطة بالديمقراطية: الحرية، والعدالة الاجتماعية، بغض النظر عن النعت الذى قد يردف به.

إن دور المثقف لا يؤت إلا من خلال "صناعة الرأى العام، و صوغ الوعى الجماعى، وبالتأثير فى الدينامية الاجتماعية والصيرورة التاريخية... (٢٦). واليوم لا

أحد يمكنه أن ينكر كيف قدم الفلاسفة التنويريون خدمة غير مسبوقة، وغير مقدرة بثمن لأوروبا أولاً، وللإنسانية ثانيًا، من خلال أعمالهم الفكرية، وموسوعتهم الفلسفية حينما أنجزوا ثورة ثقافية حقيقية بفعل إنتاجهم لمنظومة فكرية ومعرفية جديدة، خاطبوا فيها ولأول مرة فى التاريخ جميع الفئات الاجتماعية، النخبة والعامة على حد سواء.

فالمثقف يجب أن يكون مستقلاً، متبصرًا، حذرًا حيال تدجين السلطة له. وإذا ما كانت أولى المعايير المحددة له العمل بالحقل الفكرى أو الثقافى، فإنه ملزم بتبنى قضايا، ومشكلات مجتمعه، وزمانه، وبالنزول إلى الميدان للدفاع عن مبادئه وقناعاته. والمثقف لن يكون كذلك، إلا بقدر تعبيره العلنى عن مواقفه، وسعيه إلى تجسيدها عمليًا على أرض الواقع.

أصناف المثقف

بغض النظر عن التصنيفات، والتسميات، فإن الاقتراب من كلمة "مثقف" كما هى متداولة فى الخطاب المعاصر، مثلما تملى علينا العودة إلى مرجعيتها الأصلية، إلى اللغة الفرنسية أساسًا، تحتم علينا الرجوع إلى النقاش الدائر أيضا حول أصناف أو تصنيفات المثقف الناجمة ليس عن فراغ، ولكن عن واقع ملموس نتج بدوره عن تحول، وتطور فى الظروف التاريخية التى شهدت ظهور المثقف، وفى الأدوار المطلوبة أو المتوقعة منه، وفى ارتباطات تلك التوقعات، أو الأدوار، بالظروف الاجتماعية والسياسية الخاصة بكل مجتمع على حدة من جهة، كما بطبيعة الظروف العالمية المحيطة من جهة أخرى.

فمنذ أن ظهر مصطلح" المثقف" منذ قرنين أو يزيد، شهدت فرنسا مصدر هذا المصطلح، كما شهد العالم تطورات بل تقلبات تاريخية لا نظير لها. ومن حادثة "درايفوس" إلى يومنا هذا عرف العالم على الأقل حربين عالميتين، قيام وانهيار ما كان يعرف سابقًا بالاتحاد السوفيتى، ومجموعة البلدان الاشتراكية بأوروبا الشرقية، مع ما ارتبط بذلك من أحداث تاريخية، ومفاهيم عديدة: كالحرب الباردة، الثنائية، فالأحادية القطبية، لينتهى العالم أخيرًا إلى نظام العولمة، وسيطرة الولايات المتحدة

على العالم، وانعكاسات ذلك كله على منظومة القيم المعايير والمفاهيم على المستوى العالمى.

لذلك فإن فهم التصنيفات، أو الأوصاف التى ارتبطت بلفظ" المثقف" لا يمكن أن يتم بشكل علمى إلا فى إطار هذه التحولات التاريخية. فالمفهوم عندما يشتق أو يشحذ، وعندما يتطور ويأخذ معانى ودلالات مختلفة فإن ذلك لا يتم بمعزل عن السياق الاجتماعى، والتاريخى الذى يجرى فيه، وبالتالى فإن تحقيق الفهم الموضوعى لأصناف" المثقف" لن يكون ممكنًا إلا بردّه لسياقه التاريخى والاجتماعى. وعليه فإننا إذ سنناقش جملة من التصنيفات المرتبطة بالمثقف، فإننا سنفعل ذلك بغرضين: لفهمها وتوضيحها أولاً، وللتعرف على الدور التاريخى والاجتماعى للمثقف ثانيًا.

١- المثقف الملتزم

لم يكن لموقف "زولا" من قضية "داريفوس" ليمر دون أثر، بل إن الرهان كله حول دور المثقف فى المجتمع وعلاقته بالسلطة ينبع بالأساس من ذلك الموقف التاريخى. ليستمر إلى حد الساعة عبر العديد من المواقف والكتابات التى اهتمت أو تناولت موضوع المثقف.

وعندما نتكلم، أو نكتب عن المثقف الملتزم، فإنه لا يمكن إلا أن نتذكر الكثير من مواقف المثقفين الذين عرفوا بمعاداتهم ونضالهم ضد الظاهرة الاستعمارية، ضد الحروب، ضد الفاشية، ضد النازية، ضد الديكتاتوريات وضد كل الأنظمة الشمولية. لقد كانت مواقف التزم فيها هؤلاء المثقفون، بالانتصار للقيم التى اعتقدوا بأنها تحمي كرامة وحرية الإنسان.

لقد أراد هؤلاء المثقفون من خلال التزامهم البرهنة على أن التحديات التاريخية تفرض على المثقف اتخاذ موقف محدد إزاءها، لأن الواقع دلّل ويدلل دومًا على أن الأفكار لوحدها لا تقود العالم، وإذ فرضت فلسفة الالتزام نفسها، فعلى اعتبار أن رفض الالتزام هو بعينه رفض للواقع. وضمن هذا المسار جسد الفيلسوف "سارتر" وغيره من المفكرين مغزى ومعنى الالتزام. إذ ومنذ نهاية القرن التاسع عشر، وإلى

غاية مايو ١٩٦٨، أمكن القول إن تاريخ المثقفين، وبخاصة أولئك الذين يمكن تصنيفهم ضمن خانة اليسار، كان تاريخًا لرسم صورة المثقف الملتزم. إلا أنه وبدءًا من ثمانينيات القرن الماضى ظهرت العديد من الكتابات التى اهتمت بالمثقفين، تدور فى مجملها حول فكرة احتمال زوال هذه النوعية من المثقفين، ولو أن مثل هذا الطرح فى الواقع لم يكن جديدًا كلية فقد كان "ريمون آرون" قد سبقها إلى ذلك، وتحديدا عام ١٩٥٥، عندما انتقد فى كتابه "أفيون المثقفين" مثقفى اليسار، محاولاً فى ذلك تشريح وضعية الاغتراب التى يعيشونها.

ويمكن الحكم هنا بأن القضية التى تكاد تجمع عليها جل الكتابات المهتمة بالمثقف، هى أن فترة الثمانينيات من القرن الماضى قد سجلت نهاية "السادة المفكرين" أو غياب "المثقف الملتزم"، على شاكلة "سارتر". وبالتالى غياب صورة المثقف باعتباره مفكرًا كبيرًا، له الحق أو شرعية التدخل فيما لا يعنيه، وفيما هو ليس من اختصاصه. ويؤكد "لويس بودان" "Louis Boudin" هذه الحقيقة عندما يشير إلى أن بداية الثمانينات قد سجلت القطيعة الكبرى مع "سادة الفكر" بوفاة هؤلاء المفكرين الكبار. فمن "سارتر" إلى "بوفوار" إلى "أرون" "التوسير" فـ "مشال فوكو" ١٩٨٤ ثم "بيار بورديو"٢٠٠٢، الذى كان بمثابة إعادة بعث أخيرة للمثقف الكبير الملتزم الذى انهار[٢٧] بانهيار جدار برلين وما تبعته بعد ذلك من أحداث قلبت موازين القوى، وأعادت تشكيل خارطة العالم.

٢- المثقف النوعى

انهارت صورة المثقف الملتزم، وظهرت كتابات كثيرة تبحث عن صورة أخرى، أو دور جديد للمثقف، ومن بين هذه الكتب، كتاب "فرانسوا ليوتار" "François Lyotard" الذى صدر سنة ١٩٨٤، تحت عنوان "قبر المثقف" الذى أعلن فيه نهاية المثقف الكونى.

لكن ما لا يمكن الإفلات منه هو أن المثقف لا تزال صورته باقية وأن ما ينبغى هو تعديلها أو تطويرها لتتماشى والمستجدات الحالية. فوظيفة المثقف لا تزال

قائمة، بل لا يمكن تجاوزها، أو الاستغناء عنها طالما أنه الضمير النقدى الحى للمجتمع الذى يعيش فيه.

لذلك عندما وضع "ميشال فوكو" مصطلحه الجديد الذى هو "المثقف النوعى" "L'intellectuel Spécifique" فبغرض الإقرار بأن "المثقف الكونى" قد ولّى من ناحية، والتأكيد على أن المثقف لا يزال حيّا من ناحية أخرى، وأن عليه أن يتكلم، لكن ليس فى كل شىء هذه المرّة، أو فيما لا يعنيه، وإنما أن يتكلم، وأن يتدخل ضمن حدود اختصاصه، أو بما تسمح له به كفاءاته، التى يوظفها فى تعرية الوقائع. إن المثقف عند "ميشال فوكو" يتكلم لكن فيما يعنيه فقط، ولذلك عليه بالعمل ضمن حدود اختصاصه.

ما يلاحظ هنا، هو أنه وحتى بالنسبة "للمثقف النوعى"، فإن المثقف لا يمكنه أن يكون إلاّ ناقدًا للواقع حيث النقد وسيلته لتحسين شروط هذا الواقع، خصوصًا وأنه صاحب معرفة متخصصة، أى أنه لا ينطق عن الهوى. ولكن عن دراية وتبصر، "إن للمثقفين مشكلات نوعية خاصة، و غير كونية. وهى غالبا مختلفة عن مشكلات البروليتاريا أو الجماهير، إلا أنهم ورغم ذلك اقتربوا منهم، وأعتقد أن لذلك سببين هما: لأن الأمر يتعلق باتصالات حقيقية مادية ويومية، ولأنهم أيضًا يصادفون دائمًا ذات الخصم وإن فى شكل مختلف، كالشركات المتعددة الجنسيات، جهاز العدالة، البوليس، والمضاربة العقارية".[٢٨] وعليه تكون السمة الأساسية للمثقف النوعى التخصص، زيادة على قربه من العامة من الناس.

٣- المثقف الجمعى

لا اعتراض لدى يقول "بورديو" على "المثقف النوعى" وإنى أقترح ضم جهود المثقفين النوعيين بخلق شبكات تنجز عملاً نقديًا فى مواجهة إنتاج التجمعات المحافظة المدعومة من الأقوياء، فى إطار حقيقى "للمثقف الجمعى" القادر على تحديد موضوعات وأهداف تفكيره وفعله فى استقلالية تامّة.

إن على"المثقف الجمعى" حسب "بورديو" القيام أولا بوظيفة سلبية أى نقدية، من خلال العمل على إنتاج ونشر الأدوات الدفاعية ضد الهيمنة الرمزية التى تتسلح اليوم، فى أغلب الأحيان بسلطة العلم. فـ" المثقف الجمعى" القوى بالكفاءة وبسلطة المجتمع الذى ينتمى إليه يستطيع إخضاع الخطاب المهيمن للنقد المنطقى الذى يهتم بالمصطلح أو بمفردات اللغة وبالحجج. ذلك أن النقد السوسيولوجى الذى هو امتداد للوظيفة الأولى، يساعده على كشف المحددات المؤثرة على منتجى الخطاب المهيمن (بدءًا بالصحفيين والاقتصاديين خاصة) وعلى منتجاتهم، كما يمكنه أخيرًا القيام بنقد علمى دقيق للسلطة التى تدعى العلمية، أو علمية الخبراء، وعلمية الاقتصاديين بصفة خاصة. وثانيا: إمكانية تأديته لوظيفة إيجابية، بمساهمته فى عمل جماعى يهدف إلى ابتكار سياسى. لأن الملاحظ يقول "بورديو" هو أن انهيار الاتحاد السوفيتى، ومجموعة الأنظمة الاشتراكية لأروبا الشرقية وضعف الأحزاب الشيوعية، قد أدى إلى تحرير الفكر النقدى، إلا أنه وبالمقابل أدى أيضا إلى سيطرة النيوليبرالية التى ملأت الفراغ الذى تركه هذا الانهيار، وانزوى الفكر النقدى فى العالم الأكاديمى الصغير، فلم يعد يزعج أى أحد فى أى شىء.

ولذلك فالفكر السياسى النقدى بحاجة إلى إعادة بناء، وهو العمل الذى لا يمكن أن يكون مشروعًا فرديًا، أو مهمة ناطق رسمى خوّلت له جماعة، أو هيئة ما، أن يكون الناطق باسم من لا كلمة له. وهنا تحديدًا تكمن الحاجة القصوى إلى المثقف الجمعى، وإلى خطورة الدور الذى يمكن أن يلعبه، بالمساهمة فى خلق الظروف الاجتماعية من أجل إنتاج جماعى ليوتوبيا واقعية. [٢٩] لأن قوة الفكر السياسى النقدى تكمن فى مدى اتساع نطاق من يؤمنون به، ويدافعون عنه، ويعملون به إن ما يمكن استخلاصه من قراءة طرح "بيار بورديو" حول "المثقف الجمعى" هو أنه هو الآخر، كما "ميشال فوكو" يعترف بأن على المثقف مسئولية تاريخية، وهي ليست هينة، خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وسيطرة الليبرالية الجديدة على العالم وإن كان يختلف معه، فى أن هذا المثقف يجب أن يعمل ضمن شبكة تسعى لطرح البديل

السياسى، الذى لا يمكن أن يكون من إبداع مثقف وحيد وبمفرده. وبالتالى فالحاجة إلى المثقف الجمعى قائمة، وهى أكثر من ضرورة، ولا يمكن تخطيها. وعليه يكون المثقف عند "بورديو" شخصًا ملتزمًا بالنقد وبرفض التسليم بالواقع، وذلك من أجل العمل على تحسين الشروط الاجتماعية، السياسية والثقافية التى يعيش فيها الإنسان.

وإذن فالمثقف الجمعى من وجهة نظر "بورديو" لا يمكن أن يكون إلا ملتزمًا، ولو من خلال مهمة النقد التى يجب أن يطلع بها. وإلا سيكون شيئًا آخر عدا مثقف، سيكون إما فيلسوفًا، أو كاتبًا، فنانًا، أو عالمًا. وعندما شرح "بورديو" "سلطة المثقفين" فى دراسة له حول المجتمع الجامعى " L'homo académicus" سنة ١٩٨٤ خلص إلى أننا لم نعد أمام المثقف المبدع كما كانت عليه الحال فى بداية القرن العشرين، ثم إن المثقف الذى بيده السلطة اليوم، هو مثقف خضع للضغوط والمؤثرات المختلفة.

المثقف الذى يصنعه الإعلام (Médiatique)

حول هذا الصنف من المثقفين، نشر "رجيس دوبريه" سنة ١٩٧٩ مؤلفا له تحت عنوان "سلطة المثقف في فرنسا". من بين المواضيع التى تناولها فيه: علاقات السلطة داخل ما أسماه "حزب المثقفين"، تأثير سلطة المثقفين داخل المجتمع، وأخيرًا تبعية المثقفين للتقدم التقنى الإعلامى. وكذلك فعل "دومنيك لوكور" فى كتابه " Les piètres penseurs " عندما لخص فيه جملة الانتقادات التى وجهت لهذا النوع الجديد من المثقفين، الذين نالوا الشهرة بفضل وسائل الإعلام.

يتهم المثقفون الذين يقوم الإعلام بتلميع صورتهم بالتبعية لوسائل الإعلام، وبعدم التفكير فى العالم وفى ضرورة تغييره، مثلما فعل المثقفون الملتزمون من قبلهم. وبذلك فهم يدشنون عصرًا جديدًا، عصر "الفكرة الجاهزة" أو "فكرة اللحظة"، فهم لا يبحثون فى عمق القضايا أو الفكرة، مثلما لا يحاولون فهم الأسباب، ليصبحوا بذلك مجرد ملاحظين لا غير.

إن الكتابات حول هذا الصنف من المثقفين عديدة، وهى على اختلافها كانت تكيل لهم النقد، فضمن هذا الإطار كتب "لويس بنتو" "Louis Pinto" لينعتهم بـ

"مثقفى الصورة الساحرة" " Intellectuels de parodie " الذين يدينون برؤيتهم، وبشكل ومحتوى خطابهم لوسائل الإعلام. وكذلك فعل "دانيال ليندبرغ" " Daniel Lindberg" عندما نشر كتابا فى الموضوع ذاته سنة ٢٠٠٢، تحت عنوان "تنبيه لالتزام النظام تحقيق حول الرجعيين الجدد" «Rappel à l'ordre. Enquête sur les nouveaux réactionnaires ، إذ وكما يبدو من مواقف هذه النوعية الجديدة لهؤلاء المثقفين، نجد بأنهم قد نسوا أن المهمة الأولى للمثقف هى النقد، ورفض كل تسوية، أو تراض، أو تنازل أمام المهيمنين، أو المسيطرين.

والآن ماذا بعد هذه التصنيفات؟ فى الواقع لا يمكننا ونحن إزاء هذا الموضوع إلاّ أن نعرج على بعض التصنيفات الأخرى، المرتبطة بحالة المثقف العربى. إذ من غير المعقول ونحن بصدد "المثقف" أن نغفل الحديث عن تصنيفات المثقف العربى.

من بين الذين كتبوا حول هذه المسألة "برهان غليون" الذى تكلم عن عدة أصناف. منها: المثقف المجدد المصلح، والقائد. حيث " المثقف المجدد" هو المثقف المجسد لشخصية رجل التنوير، الذى تتوقف سلطته على مدى مقدرته على نقل العلوم والأفكار والقيم والمؤسسات الحديثة والجديدة من الخارج. وهو المثقف الذى استطاع فى فترات تاريخية معينة أن يدفع بالمجتمعات الراكدة، أو بالعالم الثالث إلى القطيعة مع المعتقدات الاجتماعية القديمة مقابل إدخال الأشكال الجديدة للمعرفة، التى كان لها الأثر البالغ على هذه المجتمعات. مثل تجنيد هذه المجتمعات للوقوف فى وجه الاحتلال ومكافحة الاستعمار.

ويؤكد "برهان غليون" على أن صورة "المثقف المجدد" هى الصورة المسيطرة فى الوعى العربى المعاصر وهى تشكل الموقف إزاء دور المثقف داخل المجتمع، أما من يمثل هذه الصورة، فهو الرعيل الأول من المثقفين العرب الذى حمل عناصر الجدة والحداثة من أمثال: اليازجى، ورفاعة الطهطاوى، وعلى مبارك.

أما "المثقف المصلح" وهو قد خلف "المثقف المجدد" أو هو امتداده، فيتميز فى أحيان كثيرة بالخروج، أو بالانفصال والابتعاد عن العامة. لا يهتم بالتحديث بقدر

اهتمامه بالعمل على تحسين أداء المؤسسات القائمة بالارتكاز على الدين كمدخل لإصلاح المجتمع ومؤسساته المختلفة، إذ كان يعتقد بأنه الطريق الأسرع والأسهل لتحقيق الإصلاح الاجتماعى. ولقد كان "جمال الدين الأفغانى" و" محمد عبده" أفضل من مثل هذا الصنف من المثقفين.

بعد "المثقف المصلح" ظهر "المثقف القائد" وقد كان منذ البداية الوسيط الرئيسى للدولة بقدر ما هى دولة البيروقراطية. وذلك بسبب التداخل الذى يميز العلاقات بينهما– المثقف والدولة– ولأسباب تاريخية واجتماعية عدة. ولقد لعب هذا المثقف دورًا مميزًا على الساحة السياسية الوطنية. فقد استعملته السلطة الحاكمة لتبرير ممارساتها مما أثر على سلطته المعنوية التى يتمتع بها، على اعتبار أنه مصدر الحديث والجديد. لذلك نجد أنه وعلى الرغم من النتائج التى استطاع أن يحققها على صعيد الهيمنة العقائدية، لم يتمكن من تحويلها إلى سلطة فعلية، وأبلغ مثال على ذلك فشله فى تجسيد شعارات القومية والوحدة العربية فى أرض الواقع. وربما كانت هذه أحد الأسباب التى جعلت أيضا "برهان غليون" يضيف على مصطلح "المثقف القائد" العبارة "وإخفاق المثقفين" الذين لم يفلحوا فى محصلة الأمر سوى فى "... إتقان لعبة التسوية بين المصالح الجزئية الطبقية والطائفية والعشائرية والعائلية، والتى تفترض غياب أى بعد نظرى أو إستراتيجى وطنى عام. وكانت نتيجة ذلك إجهاض ثورية المثقفين وتهميشهم." (٣٠) لذلك نرى كيف ينزع خطاب هذا المثقف اليوم، وبعد الإخفاق الذى منى به فى مواجهة السلطة الحاكمة إلى جلد الذات، والاعتراف بالجرم، تتقاذفه في ذلك أربعة مواقف رئيسة هى: موقف الالتحاق بالسلطة، موقف المعارضة للنظام، موقف الردة، وموقف الانكفاء على الذات.

ولكننا لن نختم هنا دون إحقاق الحق فـ "برهان غليون" لم يكن تشاؤميًا وقد خلص إلى "دفاعًا عن المثقفين" إلى أن الحاجة إلى دور المثقف فى المجتمع لا تزال قائمة. وأما ما يحتاجه المثقف اليوم "لتجاوز أزمته ليس الانسحاب من العمل السياسى والحياة العامة والالتزام الجماعى، ولكن الانتقال بمحورة جهده العمومى من

دائرة السلطة والدولة والنخبة المالكة إلى دائرة المجتمع، وهذا يعنى أن يصبح الرأى العام هو محور المثقف الرئيسى ومركز استثماراته الثقافية والاجتماعية معًا" [٣١] أى أن يسعى المثقف إلى الارتقاء بالذوق العام، وبمستوى التفكير فى المجتمع، لعلاقته القوية بممارسة العمل السياسى، ومن ثم بعملية التغيير الاجتماعى بوجه عام.

إن "برهان غليون" لم يكن الوحيد الذى قدم تصوره حول أصناف المثقف. فهناك مفكرون عرب آخرون فعلوا ذلك أيضا،ومن بين هؤلاء"محمود عبد الفضيل" عندما اهتم بتحليل أزمة المثقف العربى بربطها بالحقبة النفطية، وكيف فعلت فى المثقفين العرب بتحويلهم عن النضال الوطنى والقومى التحررى. فشظية الاشتراكية المتقدة التى أشعلها الفقر كما كتب "جمال حمدان" يقول أطفأها البترول العربى ليرسخ فى مقابلها قيمًا وممارسات جديدة ارتزاقية واستهلاكية وتحول المثقف العربى الطليعى إلى مثقف تلون بعديد من الألوان منها: المثقف "المراوغ" أو "الزئبقى"، المثقف "الترزى"، المثقف "المقاول" والمثقف "الاجترارى"، والمثقف "الانتحارى".

ولا ينسى "محمود عبد الفضيل" قبل أن ينتهى من مقاله التذكير بحالة جديدة للمثقف العربى، حالة الحيادية أو حالة المثقف المعقم، والمتميز بانكفائه التكنوقراطى، المهتم فقط بتقدمه وبترقيته المهنية، وبانصرافه إلى جمع المال. [٣٢] أى حالة المثقف الغائب أو المتغيب عن الساحة .

لذلك كله أعتقد بأنه قد صار من اللازم العودة مرة أخرى إلى نقطة البداية فمن هو المثقف إذن؟

صفات المثقف

يمكن حل السؤال السابق بطرق مختلفة. من بينها أن يتم تحديد مفهوم المثقف بواسطة جملة الخصائص التى يمكن أن تدلل عليه أو أن تميزه عن بقية المشتغلين بالحقل الثقافى أو الفكرى بصفة عامة.

وهنا ربما قد نتساءل مع الكثيرين، أفلا يمكن أن يقوم أولاً على أساس الفصل بين العمل اليدوى والعمل الذهنى؟ لنجيب بأنه يمكن حسم هذه المسألة من خلال

تعريف "غرامشى" للمثقف، والذى استخدم عدة معايير من بينها أن للمثقف وظيفة اجتماعية يؤديها داخل البنية الاجتماعية للمجتمع. ولذلك لا يمكن أن نعرف المثقف بالاستناد إلى مستواه التعليمى بقدر ما نعرفه على أساس الدور الذى يمكن أن يقوم به داخل المجتمع.

وبناء على ذلك يمكن الحكم بأن المثقف هو: كل إنسان يملك مجموعة من الأفكار والقيم ويسعى لتجسيدها على أرض الواقع. ومن ثم فإن المثقف لابد أن يتصف بالوعى الاجتماعى، وبالقدرة على تحليل الأوضاع الاجتماعية على مستوى نظرى أو تجريدى.

أما إذا ما تأملنا التاريخ وكيف ارتقى مفهوم المثقف، نجد أنه لابد أن نضيف أن للمثقف مهمة كشف وتعرية الوقائع، وممارسة النقد والاستعداد للذهاب برأيه إلى أبعد مدى من أجل بناء مجتمع وعالم أكثر عدلاً وإنسانية، ولذلك لابد له من الانفتاح على الآخر، من قبيل المساهمة فى صوغ الأحداث، من منطلق إيمانه بالقدرة على تغيير الواقع.

والمثقف لا يخاطب بصيغة الفرد، وإنما بصيغة الجمع، فى ارتباطه بمجموع العلاقات المتبادلة بينهم وبين الفئات والطبقات الاجتماعية المختلفة. أى بكونه فاعلاً اجتماعيًا، مشاركًا فى الشأن العام.

كما أن للمثقف خطابه الخاص، الذى يختلف عن خطاب الرجل السياسى، وخطاب رجل الدين، ورجل العلم. وإن كان يتقاطع معهم فى حيثيات معينة. فخطاب المثقف يشتغل على المسائل التاريخية والسياسية والاجتماعية، ويعتمد على سلطة العقل، وهو خطاب إنسانى النزعة، يقوم على القبول بالتعددية والتسامح واحترام الرأى الآخر، إلا أنه لا يقبل التحالف مع من يخالفونه وجهة النظر كما يفعل السياسى مثلاً.

وزيادة على ما ذكر آنفا فإن صفة الالتزام حاضرة عند المثقف، من خلال وظيفته النقدية القائمة على الكفاءة والخبرة فى المجال السياسى. فعمله على بناء

"... السلطة الثقافية وتدعيمها لا ينبغى أن يطمس الأهمية الكبرى من وجهة النظر الوطنية لمشاركة المثقفين المباشرة فى الصراع من أجل التغيير وفى ممارسة السلطة نفسها... [٣٣] داخل المجتمع الذى ينتمون إليه.

يفهم من ذلك أن على المثقف مسئولية تاريخية. وبالتالي فليس بإمكانه أن يكون غير متحيز، أو غير مبال اتجاه مشكلات مجتمعه وعصره. لذلك فإن العبارة " صمت المثقفين" التى تستعمل غالبًا لتأسف على مواقف بعض المثقفين لا يمكن أن تستقيم. فعلى المثقف أن يتكلم وأن يتخذ موقفًا محددًا بشأن ما يجرى من أحداث داخلية وخارجية، المرتبطة بحقوق الإنسان عمومًا، فليس أمامه خيارات أخرى. أو كما يقول "إدوارد سعيد" "... إما أن يتحالف مع استقرار المنتصرين والمهيمنين، وإما أن– وهذا هو الطريق الأصعب– يعتبر هذا الاستقرار كمنذر بالخطر، أو وضعية تتهدد الضعفاء والخاسرين بالاندثار الكلى...". [٣٤] أى أن على المثقف أمر تحمل رسالته التاريخية فى مقاومة الجمود والتقهقر داخل المجتمع.

ثم إن المثقف صاحب رسالة اجتماعية خاصة تتعلق بحماية حق العقل والوعى فى ممارسة وظيفته دون تقييد وليس من قبيل الترف، لأنها مرتبطة بشرط قيام المثقفين كفئة اجتماعية تملك أن تلعب دورًا من واقع امتلاكها لرأسمال اجتماعى مؤثر خاصة فى أوقات الأزمات التى تمر بها المجتمعات، حيث المعيار الأخلاقى الإنسانى أساس التأثير فيها.

ولذلك فان على المثقف أن يكون متمكنًا من اختصاصه، وأن يكون واعيًا بطبيعة المجال، والمساحة التى يتحرك فيها ويعمل عليها، إلى جانب تمكنه من جملة معارف موضوعية فى التخصصات الأخرى، مع ضرورة متابعته الدائمة للتطورات التى تحصل فى مجال تخصصه، حتى يستطيع أن يؤدى دوره كناقد اجتماعى من جهة وكساعى لتغيير العالم، وكصاحب موعد مع التاريخ، عليه أن لا يتخلف عنه، والذى يعنى من بين ما يعنى "الدفاع عن جملة من المبادئ الحيوية والضرورية لكل تقدم اجتماعى... عن الفكرة العقلانية فى الوعى والاجتماع، وعن الحرية والتسامح

فى السلوك الفردى والجماعى... وعن العلم كسلاح ... للتقدم. والدفاع الذى نعنيه هو الذى يعرض نفسه فى صورة إنتاج تراكم معرفى تنويرى..." [٣٥] ما يعنى أن دور المثقف داخل المجتمع خطير لا يمكن أن ينحصر فى مجرد التعبير عن الموقف إزاء الأحداث، حيث يمتد إلى المشاركة الفاعلة فى الحياة الاجتماعية، وإن كانت وظيفته الأصلية إنتاج معرفة، وكانت فى حد ذاتها التزام خاصة فى عالم اليوم، عالم العلم والمعرفة بما معناه أن المثقف ليس ملزمًا بالانخراط فى تنظيم ما، ما دام يعمل على الدفاع عن الثقافة واحترام الحريات.

الخـاتمـة

إن ما يمكن أن نختم به هذا المقال هو أن تناول مفهوم المثقف، ليس بالأمر الهين أبدًا، بل هو مهمة فى غاية التعقيد، مرد ذلك جملة من الأسباب نختصرها فى النقاط التالية:

١- ارتباط ظهور المفهوم بقضية "درايفوس" التاريخية، وما نتج عنها بعد ذلك من إشكالات نظرية بشأن تعريف هذا المفهوم إذ من المعلوم أنه كان موجودا قبل هذا التاريخ.

٢- بسبب كون مدلول هذا المفهوم–المثقف– اليوم نتاجًا لجملة التطورات التاريخية العميقة التى خبرتها المجتمعات عبر مراحل تاريخية طويلة متعاقبة.

٣- ولأن للمجتمعات–على اختلاف أوضاعها– مثقفوها، ما يعنى أن تعريف المثقف بطريقة سليمة لا يكون إلا فى ربطه بطبيعة المجتمع القائم، أيًا كان هذا المجتمع.

٤- وإذ نقول فى ارتباطه بالمجتمع، فهذا يشير ضمنيًا إلى طبيعة الدور الذى يلعبه المثقف سواء كان ذلك على المستوى الداخلى– الوطنى– أو على المستوى الخارجى– العالمى–.

٥- صعوبة التمييز بين الفكرى واليدوى لتجاوز تعريف "غرامشى" للمثقف عندما حكم بأن كل إنسان مثقف فلا يوجد نشاط إنسانى يمكن إلغاء دور الجانب الفكرى فيه.

٦- الصعوبة المتعلقة أيضا بتمييز حدود المثقفين لتواجدهم فى وضعية تعبر عن واقع تعقد العلاقات الاجتماعية.

٧- ثم يضاف إلى كل هذه الأسباب بل على رأسها، تعدد، وتنوع، أو اختلاف التعريفات التى اهتمت بحصر مفهوم المثقف بفعل تباين أو تناقض التوجهات النظرية والمنطلقات الفكرية للمهتمين بهذا المفهوم.

إنه ومنذ قضية "درايفوس" إلى اليوم سال حبر كثير، وزادت هذه المسألة فى تعقيد الأمر بدلاً من أن تساعد فى تحديد هذا المفهوم. فمن "إميل زولا" إلى "غرامشى"، إلى "سارتر"، إلى "كارل منهايم"، إلى "عابد الجابرى" إلى "برهان غليون"، وغير هؤلاء الكثير ممن لا يتسع المجال هنا للإتيان على ذكرهم، ورغم اجتهاداتهم الفذة لا تزال المسألة عالقة، إذ فى كل مرة تظهر نعوت جديدة تلصق بمفهوم المثقف. وبالرغم من هذا الزخم فى الطرح يمكننا أن نخلص إلى القول: إن "المثقف" في اعتقادنا هو: ذلك الذى يسعى إلى كشف الحقيقة بأشكال وطرق مختلفة، عبر التعبير والدفاع عنها باستخدام الحجة والدليل. ولذلك فالمثقف فى حاجة لأن يتحلى بالشجاعة الفكرية، خاصة وهو المنشغل دائمًا بممارسة النقد تجاه السلطة ونحو الواقع الاجتماعى مع ما يطرحه هذا الفعل من إشكالات ترتبط مباشرة بحدود استقلاليته التى تفرض نفسها، ويتحتم عليه مجابهتها، أو حسمها ضمانا لمصداقيته وصدقه.

الهوامش والمراجع

١- ميكائيل تومبسون، وآخرون: نظرية الثقافة، ترجمة: (على سيد الصاوى)، عالم المعرفة، الكويت، يوليو/تموز، ١٩٩٨، ص ص٩-١٠.

٢- المرجع السابق ، ص ١٠.

٣ – الطاهر لبيب: سوسيولوجيا الثقافة، اللاذقية، دار الحوار للنشر والتوزيع، ١٩٨٧، ص ٦.

٤ – محمد أحمد العجاتى: تطور الثقافة الرأسمالية، وتأثيرها فى الثقافة العربية أسئلة التطور والمستقبل، فى: جهان سليم وآخرون: الثقافة العربية أسئلة التطور، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣ ، ص ٦٥.

٥ – Pierre Bourdieu, Question de Sociologie, Minuit, Paris, 2004, p 197.

٦ – الطاهر لبيب: مرجع سابق، ص ص ١٠–١١.

٧ – قارن نفس المرجع: فى الصفحات ٦، ٧، ٨، ٩، وأيضا محى الدين صابر: الثقافة العربية وتحديات المستقبل فى أحمد صدقى الدجانى وآخرون: المثقف العربى همومه وعطاؤه، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية: ط ٢، ٢٠٠١، ص ص ٢٩١– ٢٩٣.

٨ – Dictionnaire le petit Larousse Illustré, Paris, 1990, p. 529.

٩ – Jean Marc Piotte, La Pensée politique de Gramsci, édition électronique, Chicoutimi, Québec, 12 Août 2002, p. 17

١٠– انظر: Patrick Wagner, La notion d'Intellectuel engagé chez Sartre, le portique recherches 1cahiers 1–2003 http ://le portique.Revues.org/document

381. html.consulté , le 9 janvier 2007.

١١– Jacqueline Russ, Les théories du pouvoir, Librairie générale Française, Paris, 1994, p. 229

١٢– Jacqueline Russ, Ibid., p. 230.

١٣– على حرب: أوهام النخبة، أو نقد المثقف، بيروت، المركز الثقافى العربى، ط ٢، ١٩٩٨، ص ٣٨.

١٤– نفس المرجع ، ص ٣٩ .

١٥– انظر: محمد عابد الجابرى: المثقفون فى الحضارة العربية الإسلامية حفريات استكشافية: أحمد صدقى الدجانى، وآخرون، مرجع سابق، ص ص ٤٢–٦١.

١٦– برهان غليون: تهميش المثقفين ومسألة بناء النخبة القادمة، نفس المرجع السابق، ص ٨٦.

١٧– Pierre Bourdieu, op. cit., p. 70

١٨–١٩– Ibid., pp. 70, 71.

٢٠- T.B Bottomore : Elites et Société (traduit de l'anglais par Gérard Montfort) édit stoch,1964 , p. 83.

٢١- Ibid., p. 85.

٢٢- نديم البيطار: المثقفون والثورة (الانتلجنسيا كظاهرة تاريخية)، بيروت، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، ط٢، ٢٠٠١، ص ٨٥.

٢٣- برهان غليون: مرجع سابق، ص ٨٥ .

٢٤- Jacqueline Russ, op. cit., p. 231.

٢٥- عبد الله عبد الدائم: عطاء المثقف العربي: المثقف العربي وضغوط المجتمع (في): أحمد صدقي الدجاني وآخرون، مرجع سابق، ص ١٥٣.

٢٦- علي حرب: مرجع سابق، ص ٤٢.

٢٧- Louis Bodin : les Intellectuels existent-ils, édit Boyard, Paris, 1997.

٢٨- http:// www.monde-diplomatique.Fr/2006/05/4 13489, mai2006. pp. 24, 25, 26: consulté le 27/11/2006.

٢٩- Ibid.

٣٠- لمزيد من التفاصيل: انظر، برهان غليون: مرجع سابق، ص ص ٩٠- ٩٨.

٣١- المرجع السابق، ص٩٨.

٣٢- المرجع السابق، ص ١١٨.

٣٣- المرجع السابق، ص١١٢.

٣٤- http:// www.Monde-diplomatique.fr op.cit.

٣٥- عبد الإله بلقزيز: نهاية الداعية الممكن والممتنع في أدوار المثقفين، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط١ ، ٢٠٠٠ ص ١٤٨.

Abstract

AN ATTEMPT TO DEFINE THE CONCEPT OF THE INTELLECTUAL

Fadela Sisawi

The concept of intellectual is a recurrent concept in sociology. It is a complex for several factors, we could summarized in two. Firstly, the nature of its historical roots and the related theoretical problematic which have a great effects on using it. Secondly, its relationship in Arabic language with "culture" concept which is deeply

vague and complex. Ideas and themes presented here are focusing on those theoretical problematic to identify and determine the concept boundaries.